

فكر جديد .. لمجتمع جديد

مجلة فصلية مُحكمة تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الإصدار الثانى
العدد الحادى والعشرون يناير/ مارس ٢٠٢١م

ملف العدد: الوعى الفكرى

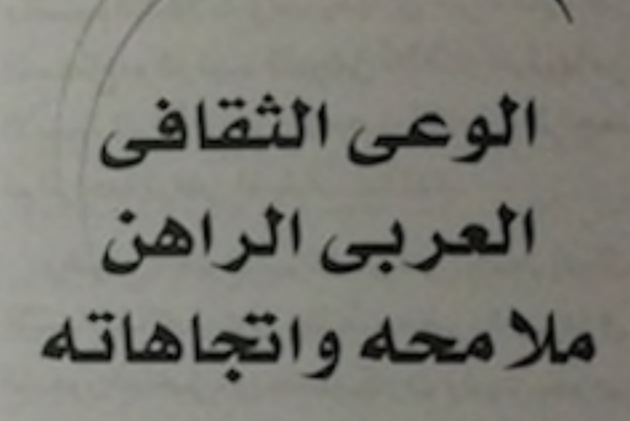
الوعى الثقافى العربى الراهن ملامحه واتجاهاته

الهوية أساس الوعى الفكرى

التصنيف العلمى والوعى العربى النهضوى



فهرس



الوعى الثقافى العربى الراهن ملامحه واتجاهاته

أ. د. محمود الضبع

أستاذ النقد الأدبى - كلية الآداب - جامعة قناة السويس

دراسة الوعى ومحاولة رصد أبعاده فى راهن المجتمعات العربية، يعد مغامرة محفوفة بالمخاطر، ذلك أن مفهوم الوعى ذاته متغير وغير قابل للقياس على نحو دقيق، والمتفرع عنه أكثر صعوبة، وهو الوعى الثقافى، الذى تتشابك فى تشكيله عدة مداخل، بعضها يعود لامتلاك مهارات التفكير والقدرة على التفكير فى التفكير، وبعضها يعود لمدخلات البيئة والتعليم والثقافة والأوضاع السياسية والاجتماعية بشكل عام، وبعضها - مما لم يكن فى الحسبان من قبل - يعود لصناعات الإعلام الجديد، الموجهة بقصدية لأغراض متعددة تتعلق بالسعى نحو فرض هيمنات: تجارية وسياسية واقتصادية وأيديولوجية، ولكل ذلك آلياته التى تعمل على نحو منظم مستعينة بالتكنولوجيا وتطبيقاتها المتطورة على نحو مستمر.

وللوقوف على المفاهيم الأولية للوعى، فلابد - أولا - من ربطه بحالة الإدراك العقلى (الأفكار، والمفاهيم، والمعرفة، ووجهات النظر)، وثانيا - بالقدرة على الإدراك الحسى (التفاعل والتواصل مع المحيط الخارجى عبر الحواس الخمس)، وثالثا - بالقدرة على التعبير عن كل ذلك بأى شكل من أشكال التواصل الإنسانى (العمل بالمعرفة المتحصلة عن الوعي)، ورابعا - بامتلاك مهارات التفكير الأساسية، وبخاصة التفكير الناقد والتفكير الإبداعى.

وقد شغلت دراسة الوعى اهتمام عدد من العلوم والتخصصات، وإن كانت البدايات مع الفلسفة، فإنه لا يمكن اليوم إنكار منجز علم النفس فى

رصد أبعاد لم تناقشها الفلسفة، ولا إنكار دور الدراسات الثقافية في الوقوف على تطبيقات الوعي في واقع المجتمعات والشعوب (الشعبوية في مقابل النخبوية)، ولا دور النظريات الاجتماعية ورصد أبعاد الوعي لدى الفرد والمجتمع، وبخاصة فيما يتعلق بالوعي الجمعي، ولا يمكن – كذلك – إنكار دور دراسات الأدب، وبخاصة الأدب الشعبي وعلاقة الموروث والأساطير والفنون وتأثيراتها في الوعي الفردي والجماعي على حد سواء، وأخيرا، لا يمكن إنكار دور التطور الحالي في دراسات الوعي في مجال علم الأعصاب وما يرتبط به من دراسات المخ والدماغ وصولا إلى محاولات رسم خرائط دماغية بديلا عن الخرائط الجينية للبشر، وانتهاء بتجارب الذكاء الاصطناعي التي يتم تطبيقها عبر وسائل السوشيال ميديا والإعلام الجديد.

كانت الفلسفة هي الأسبق في بحث ماهية الوعي ومحاولة تعريفه؛ منذ أن طرح الفيلسوف اليوناني الطبيعي طاليس - 546-625 ق.م.- سؤاله: ما الوجود؟، وكان هذا السؤال الذي يبدو بسيطا في ظاهره هو بداية التفكير في عملية الوعي ذاتها - وإن لم يكن قد أطلق عليها هذا المسمى بعد-، ثم تعمق الأمر على نحو أكبر مع مقولة "سقراط": اعرف نفسك، التي وضعها شعارا له ولتلاميذه على واجهة معبد "دلفي"، والتي تشير إلى أن الوعي بالخارجي (الكون) تبدأ من الوعي بالداخلي (النفس)، ولعل ذلك ما جعل تلميذه "أفلاطون" يرى الفلسفة إجمالا بأنها إحدى العمليات العميقة للوعي، انطلاقا من منظوره للفلسفة على أنها: السعي الدائم لتحصيل المعرفة الكلية الشاملة التي تستخدم العقل وسيلة لها سعيا للوصول إلى الحقيقة [1].

ومع فلسفات العصر الحديث، بدءا من القرن السابع عشر استطاع ديكارت أن يخطو خطوة للأمام بتأسيسه للفلسفة العقلانية واعتماده المبادئ الرياضية الأربع (الشك وصولا لليقين، والتحليل، والتركيب، والاستقراء التام) [2]، أو بصيغة أخرى اليقين من الحدس (الحدس العقلي، أو الشك للوصول إلى اليقين)، والبداهة والخلاص من القيود (أي التثبت وعدم التمسك بالأحكام السابقة)، وتقسيم المشكلات وتبسيطها إلى أجزاء كثيرة قدر المستطاع، والتركيب التدريجي للأفكار (ترتيبها من الأبسط إلى الأعقد)، والإحصاء الكامل والمراجعة ثم المراجعة (رفض المسلمات للتأكد).

وعرف "جون لوك" الوعي بأنه: إدراك الإنسان لما يحدث في عقله، وحصره "هيوم" في الشعور الداخلي، وربطه ديكارت ولبينتز بجوهر في النفس يقوم به، وإن كانت هذه التعريفات هي ما يطلق عليه الآن "الوعي الذاتي" في مقابل الوعي الخارجي، وهو ما انتبه إليه "كانط" مبكرا فميز بين الوعي النفسي (الوعي بالزمان والمكان وتصورات الذهن)، والوعي المتعالي، الذي طوره هيجل إلى الوعي الميتافيزيقي.

ولم تتوقف بعد ذلك دراسة الوعي ومحاولة الوقوف على ماهيته وأبعاده، وكلما تطور العقل الجمعي وتقدمت الحياة وتطورت آليات البحث العلمي، تعقدت أبعاد النظرة إلى الوعي، حتى غدا يمثل لغزا الآن يعرف في العلم باسم "المسألة الصعبة"[3].

وقد حاول علم النفس تصنيف الوعي إلى أربعة أنواع تبعا لحالة الإنسان السيكولوجية وإدراكه،

هي: الوعي التلقائي، والوعي التأملي، والوعي الحدسي، والوعي المعياري الأخلاقي، وإن كان النوع الأول بسيطا وسهلا يمارسه الجميع عبر ممارستهم لأنشطتهم اليومية، فإن النوع الثاني (التأملي) يتطلب مهارات تفكير عليا لا تنطبق على الجميع، في حين يستعصي النوع الثالث على ترجمته إلى لغة تواصل، ويرتبط الأخير بالقدرة على إصدار الأحكام والتصنيف والتحليل.

الوعي في التراث العربي:

أما في التراث العربي فقليلا ما يمكن العثور على تنظير لرصد مفهوم الوعي، وإن كان هناك منجز تطبيقي يكشف عن الوعي بالوعي، والوعي بالمشروع الحضاري الذي كانت الأرض مهيأة لصياغته، وهو ما نجده في تنظيرات الغزالي، وابن رشد، والفارابي، وابن سينا، وابن عربي، وغيرهم ممن اشتغلوا على نظرية المعرفة، وإن كان الحديث عن الوعي لديهم يأتي عرضا من خلال مناقشتهم قضايا أخرى تتعلق بالمنهج مثلا أو ببعض المسائل الفكرية، أو بالشك كما فعل الغزالي... إلخ.

وبحسب عابد الجابري، فإن بنية العقل العربي في تطورها بشأن المعرفة، مرت بثلاث مراحل، هي: نظام البيان، ونظام العرفان، ونظام البرهان [٤]، وهو ما يساعدنا في فهم مراحل تطور مفهوم الوعي لديهم، باعتباره مصاحبا لتطور النظرية المعرفية إجمالا، وهو ما أنتج علوما ومعارف استطاعت بالفعل أن تصنع حضارة عربية امتدت على مدى قرون، وأنتجت ثقافة يمكن تقسيمها بوصفها مشروعا إلى: ثقافة شفاهية، وثقافة مكتوبة.

وعلى مستوى البحث التحليلي لمنتج الثقافة العربية سواء مكتوبة أم شفاهية، فإنها تنقسم بحسب ما كان يحكم صياغة مشروعها إلى:

- الأدب والعلوم اللغوية وما يرتبط بها من نحو وصرف وبيان وعلوم بلاغة بعامة، ونظرات نقدية.....
- الفلسفة والمنطق والعلوم الكلامية.
- الرياضيات والفيزياء والطب.
- الموسيقى والفلك.
- علوم الدين (الفقه، والحديث، والجرح والتعديل، والأصول...).

ويعزى هذا التصنيف للفيلسوف الإسلامي الفارابي (المعلم الثاني) في نظريته تصنيف العلوم، والتي انطلق فيها لتصنيفه العلوم من موقف الإنسان المعرفي من موضوعات العلوم المختلفة، فصنف تطلب فيه المعرفة لذاتها، وتختص به العلوم النظرية، وصنف تطلب فيه المعرفة من أجل المنفعة المتوخاة من تحصيلها، وتختص بالبحث فيه العلوم العملية.

وقد رأى الفارابي أن العلوم العملية تأتي في المرتبة الثانية بعد العلوم النظرية، لأن هذه الأولى تتوقف على الثانية وتركز عليها، فهي تابعة لها وخادمة [٥].

وعلى الرغم من التطور الحضاري الذي عاشته الثقافة العربية فيما بعد الفارابي، والتلاحم مع الثقافات الواردة ومنجزاتها الفكرية، إلا أن نظرية الفارابي ستظل تحتل مكانتها من التقدير لما لها من أثر

يمكن الاعتماد عليه حتى الآن على الرغم من غياب بعض المفردات الثقافية التي تعد الآن من المكونات الأساسية لأية ثقافة مثل بنية المجتمع والأنماط التي يتعايش بها الناس ودرجة الوعي بما يفعله البشر، ودورهم الإقليمي والعالمي، وتأثيرهم في المحيطين بهم.. غير أننا لا نستطيع الجور على الفارابي فنطالب نظريته بما لم يكن بعد يمثل مطلبا من مطالب البشرية، فالأعراف والتقاليد وأنماط الحياة تم تسجيل بعض مظاهرها عبر الفروع السابقة، ولم يسجل البعض الأكثر لكونه ممارسات تأصلت في النفس عبر التاريخ، ومن ثم تأخر نسبيا النظر فيها حتى ظهرت علوم مثل علم الاجتماع والعمران بإسهامات ابن خلدون، وفرع الأخلاق في الفلسفة بتنظيرات الغزالي، وغيرها مما انتبه الوعي إليه شيئا فشيئا مع تطور العلوم.

النكبات الكبرى في تاريخ الوعي الثقافي العربي:

تعرض الوعي العربي (على مستوى الإنتاج الثقافي) لنكبات متعددة، يعود بعضها لحركات الاحتلال الخارجية، ويعود بعضها الآخر للأزمات الداخلية.

وتعد أشهر النكبات التي تعود للخارجي، ما حدث من سقوط بغداد في يد المغول عام ١٢٥٨م، وإتلاف المنتج الثقافي العربي وضياع أكثره كما دلتنا عليه بعض الإشارات في البقية المتبقية القليلة، ثم ما حدث مع الحروب الصليبية المتعاقبة بدءا من القرن الحادي عشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر، وما أدت إليه من تفكيك الأمة العربية وتدميرها، ثم جاء دور العثمانيين (الأتراك)، الذين فرضوا العزلة على الوطن العربي قرابة أربعة قرون من الزمان، وجعلوا التركية هي اللغة الرسمية للبلاد، وفرغوا المدن العربية من كل المهرة ونقلوهم إلى "الآستانة" عاصمتهم آنذاك، وهو ما أدى إلى انحراف الوعي عن مساره، وتخلف الحياة العربية عموما (اجتماعيا، وفكريا، وفنيا.. إلخ)، ودورانها في حلقات مفرغة إما بإعادة ما قاله القدماء دون مراجعة، أو الاهتمام بالأمور السطحية التي لم يكن لها أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام في سبيل التطور.

وتلا ذلك نكبة الاستعمار الغربي وتقسيمه للوطن العربي خلال القرنين التاسع عشر ومطلع العشرين لحاميات تابعة للغرب، بالاحتلال أو الانتداب، ثم نكبة ما بعد الاستعمار [٦] وما عملت عليه من توجيه تبعية الوعي العربي للغرب، وهي النكبة التي ما زلنا نعيشها.

أما على مستوى النكبات الداخلية التي مثلت أزمات متعددة في تاريخ الوعي العربي، فإنها عديدة تبدأ بعصر الخلفاء الراشدين، وبخاصة الفتنة الكبرى (علي وبنوه)، ثم نشأة الفرق الإسلامية وعلى رأسها الشيعة مع بداية الدولة الأموية، ثم أزمة الزندقة التي تصاعدت وتيرتها في عهد المهدي العباسي (ثاني خلفاء بني العباس)، وما أدت إليه من إعاقة مسيرة الوعي العربي باتهام كل المجددين بتهمتها، وامتدادها مع واقع الأمة العربية المعاصر، وبخاصة فيما تعانيه من حركات تكفير تتزايد خطورتها يوما بعد يوم، وتصل في بعض أبعادها لإثارة الحروب وارتكاب القتل المجاني انتصارا لعقيدة لنا أن نسميها مغلوطة أو

أحادية، لكن علينا أيضا أن ننظر إليها من منظور تصور أصحابها (على أننا نحن أصحاب العقيدة المغلوطة كما يروننا هم)، مثل حركة "داعش"، التي ترى بتكفير كل المسلمين دونهم، وحركة الإخوان أتباع حسن البنا عندما وصلوا لحكم مصر (يونيو٢٠١٢م إلى يونيو٢٠١٣م)، وقناعاتهم بأن كل الفئات الإسلامية الأخرى غيرهم ضالة وخارجة عن الدين والملة، وغيرها من حركات أو فرق إسلامية (على هذه الشاكلة) نشأت أو يمكن أن تنشأ مستقبلا، أو مثل الحركات والسياسات التي تتخذ الدين شعارا لها وتلقى الصدى لدى عموم الشعب والبسطاء من الناس (أولئك الذين لا يعنيهم سوى الدفاع عن دين الله وخدمة الدين الحنيف وطلب المغفرة من الله العلي القدير؛ لضمان الجنة في الآخرة).

ويضاف إلى ذلك جميعه نكبات أخرى، لعل أخطرها تراجع الوعي وغياب العلمية والمنهجية، وتراجع مستويات التعليم، وتراجع الإنتاج الفكري لعوامل عدة ليس مجال نقاشها هنا، والسقوط في فخ الإعلاء من ثقافة القشور، وهيمنة الظاهري على الجوهري، وغياب الاهتمام بالمبادرات الجادة والواعية لمحاولة استعادة الوعي العربي، أو إعادة بنائه، وهيمنة رؤوس الأموال على الحياة الفكرية والعلمية لاعتبارات متعددة.

إعادة بناء الوعي الثقافي العربي في القرن العشرين:

كان القرن العشرون أطول القرون وأكثرها أحداثا في تاريخ العالم وتاريخ الوطن العربي على وجه الخصوص، إذ شهد تحولات كبرى وجذرية لعل أبرزها تأثيرا على الوطن العربي هو الاستعمار الاقتصادي الأمريكي لدول العالم الثالث منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية، وما ترتب عليه من خسائر متعددة.

غير أنه على الجانب المقابل الأكثر إشراقا، فإنه لا يمكن الحديث عن الوعي الثقافي العربي في القرن العشرين دون التوقف أمام حركات التحرر من الاستعمار التي بدأتها مصر وتلتها بعض الدول، وما ترتب على ذلك من إعادة بناء الوعي العربي مرة أخرى بعد قرون طويلة من الهيمنة العثمانية ثم هيمنة الاحتلال الغربي، وازدهار النشاط الفكري في بعض البلدان العربية مما كان له التأثير الأكبر في إيقاظ الوعي العربي وتطويره.

فقد نشطت في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حركة فكرية اعتمدت على محورين أساسيين هما التعليم والثقافة، حيث تعددت في هذه المرحلة أشكال التعليم، ولم تعد تقتصر فقط على التعليم الديني عبر الكتاتيب والأزهر الشريف، وإنما أضيفت إليها مدارس المعلمين والمعلمات، والمدارس التي أنشأها النازحون من بلاد الشام على إثر الفتنة الطائفية التي بدأت ١٨٦٠م (في لبنان ودمشق)، والمدارس الأهلية (مطلع القرن العشرين)، وهو ما كان له الأثر في تنويع محتوى التعليم، وانفتاحه على العلوم التطبيقية (الهندسة والصيدلة والجغرافيا) والآداب المعاصرة، بعد أن كانت تقتصر على العلوم الدينية وبعضا من الآداب التراثية والأدب الفارسي.

ومما كان له عظيم الأثر في بناء الوعي العربي، الدوريات والصحف التي بدأت مع مجلة "يعسوب الطب"، وصحيفة "وادي النيل" ١٨٦٦م، ثم نزهة الأفكار، وروضة المدارس، والمقتطف ١٨٧٦م، ولم يكد ينتهي هذا القرن حتى بلغت الصحف والمجلات (١٧٠) مائةً وسبعين دورية اهتمت بالشئون السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية لمصر والمجتمع العربي، ومن بينها العديد من المجلات النسائية.

هذه الدوريات أسهمت بشكل مباشر في الاطلاع على الآداب والفنون الغربية، وبدأت معها المحاولات الأولى للكتابة الأدبية العربية في الرواية والقصة والمسرح (مسرحية "الهوى والفؤاد" لزينب فواز ١٨٩٢م، ثم روايتها غادة الزاهرة أو حسن العواقب ١٨٩٩م).

الوعي الثقافي في النصف الأول من القرن العشرين:

وبالإجمال يمكن قراءة حركة الكتابة والتأليف لهذه المرحلة عبر ثلاثة مسارات مثلت اتجاهات الوعي آنذاك، أولها، محاولة استعادة الماضي الثقافي العربي بعد القرون الأربعة التي فرض فيها العثمانيون العزلة، وما ترتب على ذلك من انتشار للجهل والخرافة وغياب الهوية.

وثانيها حركات الإصلاح السياسي والفكري التي كانت قد بدأت بوادرها مع عودة رفاعة الطهطاوي من فرنسا، ثم تبلورت لاحقا مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم، وصاحبها تأسيس مجلات (روضة المدارس، والعروة الوثقى، والأستاذ في نهاية القرن التاسع عشر).

وثالثها، بوادر النهضة الفكرية غير المعنية بالشؤون السياسية، وإنما بمناقشة القضايا الاجتماعية ومعالجة سلبيات المجتمع، وإلى هذه الأخيرة تنتمي كل الأعمال الفنية والفكرية والأدبية الصادرة في هذه المرحلة.

ففي مطلع القرن العشرين شهد فن الرواية حراكا غير مسبوق بدأ مع رواية "الفتى الريفي" لمحمود خيرت ١٩٠٤، و"القصاص حياة" لمحمود خضر البوقرقاصي ١٩٠٥، و"عذراء دنشواي" لمحمود طاهر حقي ١٩٠٧، و"خطبة الشيخ" لطه حسين ١٩١٣(التي بدأ نشرها مسلسلا في مجلة السفور بدءا من عام ١٩١٦م)، ثم رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل المنشورة عام ١٩١٤ بتوقيع "الفتى الريفي".

وشهدت الفنون تجارب رائدة في هذه المرحلة، منها تجربة "منيرة المهدية" التي تعد أول ممثلة مسرحية مسلمة تعتلي خشبة المسرح في تاريخنا العربي، وهو الأمر الذي أثار العديد من الجدل، وأحدث حراكا فكريا أسهمت فيه الكثير من شرائح المجتمع كان الغالب الأعم عليها هو الرفض والتحريم، وبخاصة مع هجوم رجال الدين على هذه الظاهرة التي رأوها نهاية للزمان وعجيبة الأعاجيب، ويمكن في ذلك مراجعة هجوم الشيخ "سعيد الغبرة" على ظهور المرأة مسرحيا أمام الرجال، في صحف ودوريات هذا العصر.

أخلصت منيرة المهدية لوعيها وواجهت ذلك جميعه بالتفكير لإنشاء فرقتها المسرحية عام ١٩١٤م، مع الاستعانة بـــ "بشارة واكيم" مديرا للفرقة، وهو الممثل المعروف ذائع الصيت حينها، وعلى الرغم من ظروف الحرب العالمية الأولى التي نشبت في العام ذاته، وطالت كل دول العالم ومنها مصر، وعلى الرغم من صراع الشهرة بينها وبين أم كلثوم (سيدة الغناء العربي) الصاعدة بقوة في هذه الآونة، إلا أن المهدية واصلت مسيرها في الإخلاص لوعيها تجاه قضية المرأة عموما، وفي التأسيس لوعي سيتحقق لاحقا مع انتشار الكتابة المسرحية للمرأة وعن المرأة كما شهدت المرحلة التالية لثورة ١٩١٩م.

أما فن السينما الذي بدأ ظهوره في مصر منذ عام ١٨٩٥ بعرض الفيلم الصامت للأخوين لوميير (في الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد)، ثم بتأسيس محمد كريم شركة لصناعة الأفلام ١٩١٧، أنتجت أول فيلمين روائيين "الأزهار الميتة" و"شرف البدوي"، عرضا في الإسكندرية أوائل ١٩١٨م.

من جانب آخر كانت هناك حركة فكرية تتشكل للمرة الأولى في تاريخ الثقافة العربية قادها الثلاثي طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود الزناتي، فكونوا جماعة شغلت نفسها بنقد الأزهر وقراءة كتب ودواوين الشعر القديم والحديث، إلى جانب تلمذهم على يد الإمام محمد عبده الذي علمهم التمرد على طرائق الاتباعيين آنذاك، وقد أسفرت هذه المرحلة عن طرد طه حسين من الأزهر الشريف و لم يعد إليه إلا بعد أن تدخل أحد شيوخه الكبار، غير أنه ما لبث أن عاد للتبرم من دروس الشيوخ الاتباعيين – كما أسماهم– واقتصر على حضور دروس قليل منهم مثل الشيخ بخيت، واتجهت أنظاره نحو فروع المعرفة التي لم يكن الأزهر الشريف يوليها عناية، والتقى معه في هذا التوجه الشيخ حسين المرصفي (أستاذ البارودي وشوقي والزيات)، فبغضا سويا طرائق التدريس في الأزهر، وأحبا الحرية والنقد وروح التمرد..

ويأتي العام ١٩٠٨م فاتحة خير على الجميع بافتتاح جامعة فؤاد الأول (الجامعة المصرية لاحقا)، والتي كانت تدرس الحضارة الإسلامية (علي يد أحمد زكي باشا)، والتاريخ والجغرافية وبعض اللغات الشرقية (حبشية، سريانية، عبرية)، والحضارة المصرية القديمة، والفلك، والأدب، والفلسفة، وغيرها من العلوم التي كان يقوم على تدريسها أساتذة مصريين وأجانب.

وحصل طه حسين على درجة الدكتوراه الأولى في الوطن العربي (مايو ١٩١٤م) حول أبي العلاء المعري، وهو ما أثار ضده الضجة الهائلة التي اتهمته بالكفر والإلحاد بسبب كتابه (الصادر عن رسالته للدكتوراه)، وطالب أحد أعضاء البرلمان بحرمانه من درجته الجامعية، لولا تدخل سعد زغلول وجعلها معركة برلمانية للدفاع عن طه حسين، وللثورة ضد ما أسماه الطرق المعوجة في الفهم والمناهج القديمة في التفكير، وكانت الأزمة قد بلغت غايتها عند طه حسين، وضاقت عليه الأحوال، لولا هذا التدخل من قبل سعد زغلول، ثم سفره إلى فرنسا.

أما الزيات الذي حصل على درجة الليسانس عام ١٩١٢م، وعمل مدرسا بالمدارس الأهلية التي

كان قد بدأ انتشارها، والتقى عام ١٩١٤ بعدد من الأصدقاء الذين قادوا الحركة الفكرية في مصر بعد ثورة ١٩١٩م، مثل المازني، وأحمد زكي، والعقاد، ومحمد فريد أبو حديد، وتزعموا حركة وطنية لمقاومة الاحتلال الإنجليزي، وكتب الزيات منشورات سرية كانت تصدرها الجمعية التنفيذية للطلبة في أثناء ثورة ١٩، وهذا ما يفسر اشتراك المدراس وخروج الطلاب والطالبات للمشاركة في الثورة آنذاك.

كان المناخ ثريا إذا قبل ثورة ١٩١٩م التي لم تنشأ من فراغ، ولم تكن الأحداث السياسية هي المتسبب فيها والحاضن لها فقط، وإنما كانت البيئة مهيأة فكريا وثقافيا من خلال التعليم الذي قادته المدارس الأهلية والجامعة المصرية، والتثقيف الذي قادته الصحف والمجلات (الدوريات)، وإن كان هذا جميعه لا ينفي ولا يقلل من شأن ثورة ١٩ وتأثيرها على تدعيم الحرية الفكرية ودعم الوعي الثقافي الذي شهد انفجارا صاحب الثورة، وأعقبها في السنوات التالية.

ففي العام ذاته وضع أحمد السكندري ومصطفى عناني موسوعة الوسيط في الأدب العربي، والذي قررته وزارة المعارف العمومية بدءا من عام ١٩١٩م على المدارس الثانوية، والمعلمين السلطانية، والمعلمين الأولية، والمعلمات السَنِية.

وترجم الزيات "آلام فرتر" لجوته عام ١٩٢٠م، ثم رواية "روفائيل" للامارتين ١٩٢٥، وأنشأ مجلة الرسالة بدءا من يناير ١٩٣٣م، بما قدمته من نتاج فكري للأعلام الكبار.

وكان المثّال الرفيع محمود مختار قد بدأ منذ العام ١٩١٨ في نحت تمثال نهضة مصر، وتم عرضه في معرض الفنون الجميلة السنوي في باريس عام ١٩٢٠، وعندما زار سعد زغلول ورفاقه هذا المعرض كتبوا إلى مصر يشجعون على إقامة التمثال في القاهرة، واتخذ بذلك مجلس الوزراء قراره في يونيو ١٩٢١، وتم عمل اكتتاب شعبي لإقامة التمثال الذي انتهى في عام ١٩٢٨م، وإن كان محمود مختار قد سخر موهبته لخدمة الحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩معبرا بتماثيله عن مرحلة النهضة والبحث عن الشخصية المحلية.

وبدأ الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة بموجب تصريح فبراير ١٩٢٢م، وتم وضع دستور جديد للبلاد صدر في ١٩ إبريل ١٩٢٣م بديلا عن قانون النظام لسنة ١٩١٣م (وضعت هذا الدستور لجنة مكونة من ثلاثين عضوا مثلوا الأحزاب السياسية والحركات الوطنية والزعامات الشعبية، وعلى رأسها عبد الخالق ثروت)، ونص على أن حكومة مصر "ملكية وراثية وشكلها نيابي".

وازدهرت الصحافة المصرية عقب الثورة فبلغت نحو ١٩ صحيفة كانت معظمها ملكا خالصا للمصريين، وازدهرت صحافة النقد السياسي الساخرة، وكان من أهم منجزات دستور ١٩٢٣م ما كفله من حرية للرأي والصحافة، مما فتح الباب على مصراعيه للدوريات والصحف التي تزايد عددها بشكل ملحوظ.

وازدهرت الفنون والآداب فتم إنتاج فيلم "الخالة الأمريكية" من إنتاج وتمثيل فوزي منيب ١٩٢٢م، وفي العام ذاته كوَّن بديع خيري مع سيد

درويش فرقة مسرحية، وكتب لها "الطاحونة الحمراء" وتم عرضها في نهاية العام بتمثيل نجيب الريحاني، واتجه بديع خيري إلى كتابة الأوبريت لتقديمه على المسرح، وهو ما لاقى القبول الجماهيري، فقدم بدءا من ١٩٢٣م عددا من الأوبريتات: "الليالي الملاح"، و"الشاطر حسن"، و "مجلس الأنس"، و"البرنسيس" الذي عالج فيه قضية العلاقة بين الطبقة الوسطى والطبقة الأرستقراطية، وناقش ضرورة وجود قانون يناقش العلاقة بين طبقات المجتمع، وكان للمرأة نصيب في توجيه الوعي نحو علاقتها بكلا المجتمعين.

كما أنتج أمين عطا الله أربع مسرحيات بين عامي ١٩١٩، ١٩٢٠، على مسرح كونكودريا وماجستيك بالإسكندرية، وهي: صباح الخير، المجنون، القضية نمرة ١٤، صندوق الدنيا، إضافة لمسرحيتين في فرقة عطا الله وشامبير هما: نعيما، وعواطف الزوجة ٢٧.

وفي عام ١٩٢٤م أعادت منيرة المهدية تكوين فرقتها من جديد بعد مرحلة توقف كبيرة، وكان الجديد في هذه المرة هو النص المسرحي الذي كتبه "بديع خيري" خصيصا للفرقة بعنوان "الغندورة"، أو (قوت القلوب كما تغير اسمه بعد ذلك)، وتم عرضه في إبريل ١٩٢٥م على مسرح تياترو برنتانيا في القاهرة، وفي العام ذاته يخرج للنور أوبريت "حورية هانم" الذي مثلته منيرة المهدية أيضا كما أشارت إلى ذلك جريدة "كوكب الشرق" آنذاك.

ثم يأتي العام ١٩٢٧م لتعرض فرقة الكسار ثلاث مسرحيات من تأليف بديع خيري وتلحين الموسيقار زكريا أحمد (الحساب، وبدر البدور، وزهرة الربيع)، ثم في العام التالي عرضت له فرقة الريحاني مسرحيات: جنان في جنان، وابقى اغمزني، وآه من النسوان، والتي تناقش قضية الزواج من الأجنبيات وآثاره السلبية على المجتمع المصري ليس فقط في محيط الأسر والأجيال الحالية، ولكن أيضا على مستوى الأجيال القادمة.

وتتابعت حركة الإنتاج المسرحي والسينمائي بإنتاج فيلمي "قبلة في الصحراء" و"ليلى" بطولة عزيزة أمير (أول ممثلة مصرية)، وفيلم "أولاد الذوات" عام ١٩٣٢ بطولة يوسف وهبي وأمينة رزق، وأنشئ ستوديو مصر عام ١٩٣٥، إضافة إلى المسارح واشتهر شارع عماد الدين باسم "شارع الفن".

لقد كانت ثورة ١٩ بوابة لعبور مصر أسهمت في بناء الوعي العام وازدهار الآداب والفنون والحركات الفكرية عموما، ويكفي أن نشير في ذلك إلى تأثيرها على العقاد الذي شارك فيها ودافع لاحقا عن الدستور الناتج عنها ضد الملك ووضع كتابه (سعد زغلول سيرة وتحية)، وتوفيق الحكيم الذي عايش الثورة وجسد فكرها في "عودة الروح"، ومي زيادة التي أسهمت بالتظاهر والخطابة والدعوة لحرية المرأة، وعميد الأدب العربي طه حسين الذي انطلقت كتاباته التنويرية لنقد الفكر التربوي والمناهج التعليمية والتراث العربي، وبخاصة في كتابيه "الشعر الجاهلي"، و "الأدب الجاهلي".

الوعي الثقافي في النصف الثاني من القرن العشرين:

وشهد منتصف القرن العشرين كذلك تحولات كبرى في طبيعة وملامح الوعي العربي، وبخاصة بعد

الانتقال من العصر الملكي إلى العصر الجمهوري في مصر (يوليو ١٩٥٢م)، ودخلت الأمة العربية جميعا في الوعي العروبي والقومية العربية التي شملت كل البلدان والشعوب العربية تقريبا.

غير أن هذا الوعي قد شهد مرحلة تحول أخرى بعد نكسة ١٩٦٧م، والتي تعد علامة فاصلة في تاريخ الوعي العربي المعاصر، إذ بعد الحلم بالقومية العربية التي انطلقت من فكرة أن شعوب الأمة العربية هي شعب واحد يمتد من الخليج إلى المحيط، وتجمعه لغة واحدة وتاريخ واحد وملامح ثقافية واحدة، وبعد الشعارات الرنانة من قبيل "ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد"، و "بلاد العرب أوطاني"، بعد ذلك كله تعرضت مصر ورئيسها الذي كان زعيما للأمة العربية ورمزا للشعوب العربية (رجالا ونساء وأطفالا) لنكسة ١٩٦٧م أمام إسرائيل، وفقدت مصر سيناء، وكانت النكسة كلها بمثابة الصدمة التي أضعفت شوكة العرب، بقدر ما مكنت اليهود من تعزيز وجودهم في فلسطين، ومن تقوية دعائم دولتهم الظالمة، بل والامتداد خارجها لفرض قوتهم على البلدان المجاورة (سورية، ولبنان، والأردن، ومصر)، وحتى مع انتصار مصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣م واسترداد سيناء، فإن القومية العربية لم تستطع التحقق على النحو المطلوب، على الرغم من استمرار النضال من أجلها حتى الثمانينات من القرن الماضي في مصر وسورية والعراق، وغيرها.

اتجاهات الوعي الثقافي العربي في القرن العشرين:

لا يمكن رصد أبعاد الوعي الثقافي عبر هذا القرن دون التوقف أمام الاتجاهات الفكرية الكبرى التي نتجت عن الحركة القومية العربية على مدى نصف قرن من الزمان منذ نهاية الخمسينات وحتى نهاية الألفية الثانية، إذ يمكن تصنيف الوعي العربي إجمالا إلى هذه الاتجاهات، والتي استطاع كل واحد منها أن يضم إليه شريحة من أفراد الشعب العربي على اختلاف جنسياتهم العربية، وهي:

- **الاتجاه الديني الإسلامي:**

ويؤمن بالمرجعية الإسلامية في توحيد الأمة العربية، بعد تنقيتها من الشوائب التي لحقتها عبر التاريخ، ويمثل هذا الاتجاه عبدالرحمن الكواكبي بدءا من نهاية القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين وكتابه الأشهر "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، ومحمد عابد الجابري وبخاصة في سلسلة مؤلفاته عن نقد العقل العربي (تكوين العقل العربي، وبنية العقل العربي، والعقل السياسي العربي، والعقل الأخلاقي العربي)، وعبد الوهاب المسيري وبخاصة أطروحاته حول المجتمع التراحمي والمجتمع التعاقدي، ومحمد سليم العوا ومشروعه الضخم "المشروع الإسلامي الحضاري الوسطي"، وفهمي هويدي في كتاباته عن التدين المنقوص، وأزمة الوعي الديني، والقرآن والسلطان، ومنير شفيق الذي اعتنق الإسلامي في أواخر السبعينات من القرن العشرين، ووضع عديدا من المؤلفات يدعو فيها لتبني المرجعية الإسلامية في توحيد الأمة العربية، ومنها: الإسلام في

معركة الحضارة، والإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، ومحمد الغزالي في كتاباته المتعددة التي تجاوزت ثلاثين كتابا.

- **الاتجاه اليساري العربي (الاشتراكي):**

وهو اتجاهات متعددة وليس اتجاها واحدا، تتنوع بين الفكر الاشتراكي (نظام اقتصادي يعتمد الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج)، والديمقراطية الاشتراكية (تدخل الحكومة لترسيخ العدالة الاجتماعية ضمن النظام الرأسمالي)، والليبرالية الاجتماعية التي تؤمن بالحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية (إزالة الفوارق الاقتصادية بين طبقات المجتمع) والعلمانية (أي فصل الحكومة ومؤسساتها وسلطاتها عن السلطة الدينية).

وقد تعددت تمثيلات هذا الاتجاه في أحزاب وليس أفرادا أو جماعات، وشملت كل بلدان الوطن العربي طوال القرن العشرين، فمثلا كانت معظم الدول العربية فيها حزب شيوعي باسمها (الحزب الشيوعي المصري ١٩٢٢م، والحزب الشيوعي السوري ١٩٢٤م، والحزب الشيوعي اللبناني ١٩٢٤م، والعراقي ١٩٣٤م)، وحملت بعض الأحزاب اليسارية مسميات أخرى، ومنها حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية ١٩٦٠م، والحركة الشعبية لتحرير السودان ١٩٨٦م، والحركة الديمقراطية والاجتماعية في الجزائر ١٩٦٦م، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ١٩٦٧م، وحزب التجمع الوطني الوحدوي في مصر ١٩٧٦م، وحزب العمال في تونس ١٩٨٦م، وغيرها من حركات وأحزاب.

- **الاتجاه الوسطي:**

ومثلته الحركة الناصرية بتنويعاتها المختلفة، والتي انتمى إليها كثير من الكتاب وأصحاب الرأي، الذين ما يزال بعضهم له نتاجه الفكري، والتأثير في الوعي حتى الآن.

وقد سعى كل اتجاه من هذه الاتجاهات إلى محاولة تشكيل الوعي العربي تبعا لمنطلقاته الفكرية، وكان لكل اتجاه فيها مفكروه وكتابه ومؤلفوه ومنابره الفكرية، وما نتج عن ذلك من أشكال ثقافية متعددة، تنوعت بين الآداب والفنون والدراسات والبحوث والمقالات والندوات والمؤتمرات واللقاءات الفكرية عبر الإذاعة والتليفزيون، والأنشطة الفعلية على أرض الواقع (نشاط اليسار في القرى والمدن، ونشاط الجمعيات والمؤسسات الإسلامية... إلخ)، وهو ما عمل في نهاية الأمر على إعادة تشكيل وعي شرائح الشعوب العربية تبعا لواحد من هذه الاتجاهات.

- **الاتجاه نحو الوعي الفكري الغربي:**

حيث شهد النصف الثاني من القرن العشرين هيمنة كاملة للوعي الثقافي الغربي على الوعي العربي، في المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والآداب والفنون، وتكفي مطالعة ورصد حركات التحول في أي فرع معرفي عربي منذ سبعينات القرن وحتى نهاية الألفية الثانية، للوقوف على حجم التحولات في التخلي عن الهوية العربية لصالح الهوية الغربية بمبرر أن العلم لا هوية له (وهي مقولة خادعة ما زال يروجها أصحاب هذا الوعي

حتى يومنا هذا، ولا يجرؤون على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا ضبط المعادلة في الحفاظ على الهوية العربية لصالح الغربية كما فعلت شعوب الشرق الأقصى وبخاصة اليابان والصين).

الوعي الثقافي العربي في القرن الحادي والعشرين:

شهد مطلع القرن الحادي والعشرين تراجعا لمشاريع الوحدة العربية، وظهور المشاريع الوطنية داخل كل دولة بديلا عن المشروع العربي الوحدوي.

كما شهدت الألفية الثالثة منذ مطلعها تحولات جذرية في مفاهيم الحياة والكون والبشر والإنسانية، فتهاوت نظم ومؤسسات ونظريات سياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية، وبزغت أخرى بديلا عنها سرعان ما قوضت البقية الباقية من مرتكزات ظلت مستقرة لقرون طويلة، وخلخلت المتبقي منها، ولو سألنا أنفسنا عن مركز انطلاق الشعلة التي أحدثت كل هذه التحولات، فإننا سنصل إلى تلخيصها في "المعرفة"، وما شهدته من تحول في وسائطها، والانتقال إلى الرقمية، واستثمار المعلومات وتسعيرها، مما فرض على العالم الانتقال إلى إعادة صياغة كل شيء ليتوافق مع نموذج المعرفة والتكنولوجيا، حيث تم المزج بين متباعدات عدة لصناعة نموذج هو المتحكم الآن: استثمار المعرفة والمعلومات، والرأسمالية الجديدة، والغزو الفكري، وفلسفات التفكيك والحداثة وما بعد الحداثة، والعولمة، ومجتمع المعرفة، وحروب الجيل الرابع والخامس والسادس، وغيرها من معطيات أوجدتها التكنولوجيا وأسهمت في منحها مساحات لمن يمتلك القدرة على الاستثمار لصالح تحقيق أهدافه والترويج لهيمنته، وتحقيق مكاسبه السياسية والاقتصادية بمفهوم القوى الناعمة.

وعبر عقدين من الزمان (٢٠٠٠- ٢٠٢٠م) تعالت أصوات المفكرين في العالم لقراءة وتحليل ما يحدث والتكهن بمستقبله، فندد البعض بانحراف البشرية عن مسارها، وسقوطها في فخ الجهل الجديد، والتفاهة والمديوكرية La médiocratie، (كتابات آلان دونو، وتوما دو كونانك).

ونبه البعض لاختلال العالم الفكري والاقتصادي والمالي، الذي يجر الكوكب إلى اضطرابات يتعذر التكهن بنتائجها، والاختلال المناخي الناتج عن ممارسات طويلة غير مسؤولة، والبربرية الحديثة (التي تفوق بربرية العصور القديمة)، والفجوة بين التقدم المادي والأخلاق، وما يؤدي إليه من عنف وفوضى (أطروحات أمين معلوف).

وحذر البعض من مخاطر السيولة وهيمنة منطق الاستهلاك بمعناه العميق للمكان والقيم والأشياء والعلاقات في ظل العولمة (أعمال زيجمونت باومان الحداثة السائلة والحياة السائلة والحب السائل... إلخ)، وسعى البعض للكشف عن طبيعة التحولات الرقمية التي طرأت على العالم بفعل التكنولوجيا وما يحدث في أجهزة الكمبيوتر والهواتف المحمولة عندما نستخدمها، وكيف ترسل إشاراتها للشركات المنتجة، وكيف تتحول كل أشكال حياتنا بفعل استخدامها، واستثمار وتوظيف ذلك كله من قبل الإعلام الجديد (مؤلفات هال آبلسون، وهاري

لويس، وكين ليدن، وبرامود كيه نايار، وهربرت شيلر، وليا ليفرو، وبعض أفلام السينما الوثائقية).

وسعى البعض لقراءة الواقع للتكهن بمستقبل العالم فيما بعد العولمة، وبخاصة بعد عودة الرأسمالية الجديدة عقب الأزمة الاقتصادية ٢٠٠٨م (كتابات إريك كازدين وإمري زيمان، وسمير أمين).

وطرحت كثير من المؤلفات أسئلة من قبيل: هل سيكون القرن الواحد والعشرين دينيا؟، وهل الثقافة لازمة للبقاء؟، وما موقع ومستقبل الأخلاق والقيم الإنسانية من خارطة التطور؟، وما السيناريوهات المتوقعة بعد تكشف خديعة "ديستوبية العولمة"؟، وغيرها من الأسئلة الجوهرية التي تحكم مسار العالم الآن.

وعبر ذلك جميعه كان الوعي العربي منشغلا بأزماته الداخلية أكثر من انشغاله بمواكبة هذه المستجدات والبحث عن حلول لجوهر قضاياه.

اتجاهات الوعي الثقافي العربي في القرن الحادي والعشرين:

باقتراب نهاية العقد الثاني من الألفية الثالثة، يمكن الوقوف على الاتجاهات الكبرى للوعي الثقافي العربي، انطلاقا من عنصري الإنتاج الفكري والثقافي والفني، والتأثير في شرائح من المجتمع، وهذه الاتجاهات هي:

1. **اتجاه الوعي التراثي (الإخلاص للماضي):**

وهو اتجاه ينظر للماضي ويقيس عليه في كل شيء، وتهيمن الماضوية على كل مجريات حياته، بما يجعلها تصل غالبا لمستوى الأسر، مهما بدت محاولات التحرر منه والتخفف من وطأته، والأمثلة على ذلك عديدة، منها: نموذج استخدام اللغة حيث تقاس الفصاحة والبلاغة دومًا على الماضي، ولا يسمح إلا قليلا بالانحرافات اللغوية (التي هي المكوّن الأساسي لتطوير اللغة وابتكار بلاغات جديدة)، كما يعود أصحاب هذا الاتجاه إلى الماضي في سلسلة العادات والتقاليد الاجتماعية التي يرى الوعي العربي أنها الملمح الأساسي الدال عليه والمكون لهويته دون أن يفكر في استحداث منظومات من القيم تتناسب وحاضر الحياة.

ويرى بعض أصحاب هذا الاتجاه بأن هذا التراث لا يمكن قبوله الآن على علاته، وإنما يحتاج إلى تمحيص وتدقيق واختزال وإعادة إنتاج، ويدللون على تاريخ عريض يمتد منذ جهود جمال الدين الأفغاني وحتى الآن، إلا أن الواقع المتأمل سيجد أن هذه الجهود جميعا لم تحقق المرجو منها على النحو المطلوب، ولم تستطع الجهود العربية أن تبني هذا الحلم الذي يعيد قراءة تراثه ثم يسائله أسئلة الحاضر، ليبني عليه مستقبلًا يصلح للتواجد وامتلاك بدائل القوة المتعددة التي طرحتها الحياة من حولنا.

وهذا لا يعني على الإطلاق أن الماضي فاسد على الإجمال، ولكنه في الآن ذاته ليس مقبولًا على الإجمال، والفارق بينهما يكمن في الوعي بهذا الماضي وإدراك كيفية تداوله والعيش به وعليه، وفي سياقنا العربي يمكن ملاحظة أن كثيرًا من الأفكار التي يعيش بها أهل أي من الأمم العربية الآن يعود إلى موروث بعيد تم البناء عليه، وشكَّلَ مكونات ثقافته

الموروثة عبر التاريخ، والتي لا يستطيع أي عربي الفكاك منها ما دام يعيش في محيطها المكاني، فالبيئة المكانية والاجتماعية هي التي تفرز مجموع الأفكار التي يعيش بها الإنسان عمومًا قبل أن يمارس التعليم والتثقيف دورًا، ومعنى ذلك أن كثيرًا من أفكارنا العربية التي نتصرف على أساسها تعود لمعتقد قديم ربما لم نفكر فيه مطلقًا، ولكننا نمارسه ونتداوله ونعيش به دون أن ندرك أنه في حاجة لإعادة نظر وإعادة تحديث وإعادة صياغة.

2. اتجاه الـــوعي الإســـلامي وتيـــارات الإســـلام السياسي:

وهو اتجاه يختلف عن الاتجاه التراثي الماضوي، فإذا كان الاتجاه التراثي يتوجه إلى الماضي لاستعادة نموذجه، فإنه يستدعى الماضي بكل نتاجه من فنون وآداب وفلسفة وعلوم دين ودنيا، بل كثيرا ما يبحث عن المفكرين والمجددين في التراث من أمثال ابن رشد والتوحيدي وابن سينا والفارابي والبيروني وابن عربي وأمثالهم ممن لديهم حتى اليوم ما يبني معرفة وفكرا وأطروحات تصلح للتداول وإعادة الإنتاج.

أما الاتجاه الإسلامي، فإنه ينظر للماضي من منظور ديني فقط، لاستعادة عصور الإسلام الأولى كما تداولها التاريخ، ويبحث فيه عن علوم الدين فقط، فقها وشرعا وعقيدة، وإن كانت تيارات الإسلام السياسي قد صبغت معظم أصحاب هذا الاتجاه، وإن كان ذلك خفيا في كثير من الأحيان، وقد كشف الوضع السياسي في العالم العربي خلال العقد الأخير بدءا من ٢٠١٠م عن انتماءات كثير من المثقفين العرب إلى جماعة الإخوان المسلمين، أو التيار السلفي الديني، أو فرق الشيعة، وغيرهم، وهو ما لم يكن ظاهرا قبل ذلك.

لكن يبقى هناك فصيل من المثقفين العرب لا ينتمي أفراده لتيارات الإسلام السياسي، وإن كان وعيه ينتمي إلى استعادة النموذج الإسلامي بصيغ متعددة، وينقسم على أرض الواقع إلى فريقين:

الفريق الأول يمثله أفراد يتمثلون الخطاب الإسلامي في خطابهم التداولي (عبر وسائل الإعلام، أو إنتاجهم الفكري، أو محاضراتهم مع الطلاب حال كونهم أساتذة، أو وسائل التواصل والتأثير في وعي الآخرين).

والفريق الثاني تمثله جماعات نوعية في فروع الثقافة المختلفة، بعضها يمكن رصده على أرض الواقع، مثل رابطة الأدب الإسلامي، وغيرها.

3. اتجاه الوعي الحداثي (الغربي):

وهو اتجاه يمتلك الوعي بقضايا ومشكلات العقل العربي، لكنه يحيلها إلى الفكر الغربي، ويقيس عليه، انطلاقا من ثقافته الغربية، وقد يصل الأمر ببعضهم لقطع الصلة التامة بالتراث العربي وعدم الدراية به، وربما يعود ذلك لفهمهم الخاص لمقولة القطيعة المعرفية لفوكوه، أو لنزوعهم إلى تمثل فلسفة ما بعد الحداثة في قطيعتها مع الماضي كلية، وهو الأمر الذي يصلح مع ثقافات ليس لها امتداد وعمق في التاريخ، ومجتمعات صناعية بحتة، لكنه لا يتناسب مع الوضع العربي الذي لن يستطيع فعليا إحداث القطيعة الكلية مع ماضيه الممتد وموروثه الفكري والعقلي والاجتماعي الذي يحيا به، والذي يحوي الإيجابي

كما يحوي التراكمات السلبية، مثله مثل كل الموروثات الفكرية في المجتمعات ذات الحضارة.

يتمثل أصحاب اتجاه الوعي الحداثي الغربي قيم الحداثة وما بعد الحداثة نقلا حرفيا، وغالبا لا يتهاونون في إحداث أي تعديل على النظرية أو المدخل أو الأطروحة المستوردة، ويعدون ذلك من قبيل الخطأ المنهجي، على الرغم من أن واقعنا الثقافي قد يقتضي التكييف والتعديل، بل إن هذه النظريات والمداخل ذاتها تقبل أن يحدث عليها التعديل والتبديل بمرور الزمن وحدوث مستجدات في الحقل المعرفي والواقع الثقافي المحيط بها.

وقد كانت بدايات انتشار وسريان هذا الوعي عربيا في الثلث الأخير من القرن العشرين، وبخاصة مع استيراد المناهج الفكرية ونظريات الأدب والثقافة، وازدهار ترجمتها ونقلها حرفيا إلى الواقع العربي، وشيئا فشيئا حدث أن تم التخلي عن الفكر العربي لصالح المستورد، حتى إذا ما جاء القرن الحادي والعشرين، غدا ذلك يمثل اتجاها في الوعي ينتمي إليه كثيرون من تلاميذ الأساتذة الذين أسسوه، وإن كان الأساتذة عندما بدأوا ذلك في أوخر القرن العشرين كانوا يجمعون بين الوعي بالترث والوعي بالفكر المستورد، فإن التلاميذ – الذين غدوا أساتذة الآن– أحدثوا قطيعتهم مع التراث وانحازوا للفكر الغربي فقط..

ولعل مثالا واحدا فقط من عشرات الأمثلة في التخصصات والحقول المعرفية يدلنا على ذلك، وهو النظرية الأدبية والنقد الأدبي، إذ لم يعد يمكن الحديث الآن مطلقا عما هو عربي الهوية فيهما، لأن المستورد الغربي قد هيمن تماما لدى أصحاب هذا الاتجاه، بل لدى الكتاب أنفسهم.

وإن كان ذلك لا يعني على الإطلاق الدعوة لإحداث القطيعة مع الفكر الغربي أو الشرقي أو العالمي إجمالا، وإنما يعني هنا تحديد أبعاد الاتجاه وتحديد موقف ووعي أصحابه، لمعرفة حاضر ومستقبل هذا الوعي، ومدى تأثيره على الهوية العربية ومستقبلها غير المحمود في ظل ما يحدث.

4. اتجاه الوعي الحداثي (العربي):

وهو اتجاه تشكل وعيه بمزيج من الاطلاع على الفكر الغربي والشرقي والشرق الأقصى (الصين واليابان ..إلخ)، وضم إليه وعيا بالتراث العربي، وراهنه وقضاياه، ووعيا بتراث وثقافة الحضارات الكبرى في الشرق والغرب (الفرعونية واليونانية والفارسية والهندية، والأوروبية الحديثة).

وعادة ما يكون أصحاب هذا الوعي متجاوزين لحدود التخصصات، ويكون نتاجهم الفكري مشتبكا مع حقول معرفية متعددة وليس مكتفيا بمجال التخصص فقط، وتكون لديهم رؤى أوسع تقارب بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية (تكامل العلوم)، وعلى وعي بالعلوم البينية وتطور الدراسات الثقافية (بوصفها المساحة الأسع للثقافة والعلوم).

ويمتلك أصحاب هذا الوعي رأيا ورؤية تحليلية ناقدة، ولديع نزوع دائم نحو الثورة الفكرية، مما يجعلهم يمثلون الصوت المختلف والمنتقد لأوضاع المجتمع، وسياساته غير الواعية، ومساراته غير الصحيحة، وانشغالاته بالسطحي والقشري دون

الجوهري والعميق... وهو ما يجعل أصحاب هذا الوعي غير مرغوب فيهم من قبل الكثيرين، وبخاصة أصحاب المصالح الذين يعملون جاهدين من أجل الحفاظ على مكتسباتهم الصغيرة، ويخشون أي حالة حراك فكري يمكنها أن تقلق أوضاعهم، وهو الأمر الذي يفسر حالة الإقصاء التي يتعرض لها أصحاب هذا الوعي، والممارسات الخفية التي تثار ضدهم.

وعلى الرغم من قلة عدد المنتمين إلى هذا الوعي قياسا للاتجاه التراثي الماضوي أو الإسلامي إلا أن تأثيرهم في وعي المحيطين أكثر فاعلية، وبخاصة في أجيال الشباب والأجيال اللاحقة عليهم، ويكفي أن يتوفر أحدهم في مؤسسة (جامعة، معهد، مركز ثقافي) ليقود حراكا بمفرده يعمل على تغيير وعي العشرات من حوله، ولا نعدم جميعا أن يكون أحدهم قد غير وعينا عبر قراءة أعماله، أو التتلمذ على يديه، أو الحوار عنه.

5. **اتجاه الوعي بالمستقبل:**

ما تزال دراسات المستقبل غير وافية في الثقافة العربية، سوى من بعض الأعمال القليلة التي بزغت عبر التاريخ، ومنها "مستقبل الثقافة في مصر" لعميد الأدب العربي طه حسين الصادر عام ١٩٣٨م، والذي وضعه ليسجل أفكاره حول ما يجب أن تضعه مصر نصب أعينها عقب حصولها على الاستقلال عام ١٩٣٦م، وقد طرح فيه أفكارا جريئة حول طبيعة حضارة مصر وانتمائها وتأثيرها على الحضارات الغربية واليونانية، كما عالج مشكلات التربية ومستقبلها في هذا البلد العظيم.

غير أن الوعي العربي لم يستطع استثمار مثل هذه الكتابات ليشكل اتجاها نحو الدراسات المستقبلية كما تبلور في الغرب خلال النصف الثاني من القرن العشرين علي يد جاستون بيرجر، وبيير ماس، وبيتراند دو جوفونيل، وفرد بوليك، وجان تيمبرجن ومجموعته، وغيرهم كثير ممن أسسوا مراكز ومؤسسات ومعاهد معنية بدراسة المستقبل المحتمل، وتبلورت اتجاهات الدراسات المستقبلية إجمالا في: التوجه التكنولوجي المعني بدراسة توقعات المستقبل بشأن تحديث وتطوير هذا المجال، والتوجه الاجتماعي لدراسة مستقبل تحولات المجتمعات وما يتعلق بها من سياسات ونظم، والتوجه العلمي لدراسة مستقبليات العلم وتطور نظرياته وأبحاثه وتطبيقاته.

غير أنه مع نهايات الألفية الثانية وبدايات الثالثة، بدأ الوعي العربي في الانتباه لأهمية الدراسات المسقبلية والنظرة للمستقبل على نحو علمي، فبدأ — على استحياء– اتجاه نحو قراءة المستقبل العربي، بدأ بالتحذير من مخاطر المستقبل، ثم برسم السيناريوهات المتوقعة لواقع الأمة العربية وقضاياها، في السياسة والفن والأدب والفكر والقضايا المجتمعية، وظهرت كتابات تحاول قراءة مستقبل اللغة العربية إذا لم يتم الانتباه لأهمية برمجتها ورقمنتها، وأخرى تحاول قراءة مستقبل التحول الاجتماعي إذا لم يتم الانتباه لتحولاته الراهنة، وثالثة تحاول قراءة تحولات الإسلام السياسي إذا لم يتم استيعابه ودمجه في المجتمعات الحالية، ورابعة تحاول قراءة مستقبل الإعلام إذا لم يغير من مساراته لصالح وعي المواطنين الذين يلجأوون للإعلام الجديد (مواقع السوشيال ميديا

وخلافه)، وخامسة تحذر من التحولات السياسية، وهكذا.

واستطاع هؤلاء وغيرهم استثمار القنوات المتعددة من كتب مطبوعة وميديا، وإعلام بديل لصالح تمرير وعيهم، الذي غدا يمثل اتجاها الآن، وإن كانت الدراسات الأكاديمية والعلمية لم تنتبه إليه على النحو الكافي.

6. **اتجاه الوعي الاستهلاكي (التداولي واليومي)، في ظل الإعلام الجديد:**

تعد السيطرة على الإعلام في عالمنا المعاصر أهم وسائل السيطرة على كل مجالات الحياة، لتحقيق مصالح سياسية واقتصادية وثقافية وحتى استعمارية بمفهوم الاستعمار الحديث (الاحتلال الفكري والثقافي)، بما تمتلكه من قدرة على التحكم في تكوين وتوجيه الرأي العام المحلي والعالمي، وفي إقرار أنماط وأشكال جديدة للحياة وتحويل البشر إليها، وفي تمرير سياسات وأفكار وثقافات، وفي الترويج لأي فكرة أو قضية حتى ولو كانت خادعة أو غير حقيقية، وفي تشكيل الوعي بكل أبعاده.

وعلى نحو مختصر يمكن القول إن **الإعلام الجديد** المرتبط بالتكنولوجيا يمتلك القدرة على **إعادة صياغة العالم والتحكم** به، ولذا شاعت في العقود الأخيرة مقولة **"من يمتلك الإعلام يمتلك الحقيقة"**، مع الوضع في الاعتبار أن الحقيقة هنا لا تعني على الإطلاق المفهوم المستقر في الأذهان والمرتبط بالصدق، والمنافي للكذب والخداع وغير الحقيقية، وإنما تعني إنتاج واستثمار المعرفة التي يحتكرها، ثم توظيفها وتوجيهها لما يخدم مصالح المالك (المحتكر لها)، أي الإعلان عن بعض ما يملك، أو إعادة تكييفه بما يتناسب وتحقيق أهدافه، وبالتالي إخفاء ما يتعارض مع مصالحه حتى لو كان فيه إضرار بمصالح البشرية من حوله، وبث الأفكار وتمريرها بما يخدم مصالحه، وتحقيق أهداف سياسية كانت تحتاج قبل ذلك إلى عدة وعتاد لتنفيذها، لكنها اليوم بفعل هذا المزيج (الإعلام والتكنولوجيا) غدت في غاية السهولة لصاحب امتياز منتجها.

يستخدم الإعلام الجديد في ذلك كل الوسائل التي عرفتها البشرية من قبل، ويوسع من مجالها، ويضيف إليها، ويحسن استخدامها، من صوت وصورة وحركة ومشاهد مرئية (مصنوعة أو منقولة من سياق لسياق، أو طبيعية يعرف متى يوظفها) [٧]، وعبر ذلك جميعه استطاع الإعلام تحويل المجتمعات كلها، فقيرها وغنيها، إلى **مجتمعات مستهلكة سائلة** يستطيع التحكم فيها عبر سوق عالمي.

وقد لا يكون من المبالغة القول بأنه لم تعد هناك سبل أمام المستهلكين الآن في كل شعوب العالم سوى الخضوع لأوامر السوق العالمي وأوامر من يتحكم فيه ويفرض قوانينه وقواعده، ويكفي للتدليل على ذلك مراجعة واقع الاحتكار العالمي في مجتمع المعرفة، "أربعة وكالات أنباء عالمية فقط معروفة باسم "الأربعة الكبار" هي التي تحتكر نسبة 80% من إجمالي التدفق المعلوماتي العالمي، وأن مائة موقع فقط هي التي تستولي على 80% من إجمالي مستخدمي شبكة الانترنت"[٨]، وكل ذلك يخدم الهدف الأساسي لهؤلاء الكبار، وهو: **صناعة العقول، وتشكيل الوعي، وصياغة الرأي العام العالمي، وخلق المعتقدات لدى الأفراد، وخلق**

الجماهير الداعمة لفكرة أو عقيدة ما، يتم تصديرها عن طريق هؤلاء الكبار.

أي أنهم لا يتحكمون في مسار السوق العالمي فقط، وإنما في وعي أفكار وثقافات الشعوب ولغاتهم أيضا، ويمكن في ذلك مراجعة قضايا الصراع العالمي في هذا الشأن بين الصين هاواوي، وأمريكا جوجول (المملوكة لألفابيت) والاتهامات المتبادلة بينهم فيما يخص استغلال التكنولوجيا والإعلام، وإعلان دونالد ترامب منذ توليه رئاسة أمريكا في عام ٢٠١٧م "ضرورة تطبيق سياسات اقتصادية عادلة ومواجهة القرصنة الصينية لحقوق المعرفة والملكية الفكرية ولاسيما بالقطاع التكنولوجي"(٩)، وإعلانات الصين المتهمة لأمريكا بذات التهمة، وغيرها من صراعات في هذا المجال تشير إلى الرغبة في احتكار وسائل الإعلام، وإدراك مدى أهميتها وخطورتها وفاعليتها في تحقيق سياسات من يمتلكها.

ومن جهة أخرى، فإن هذا الاحتكار في الإعلام ووسائل الاتصال، يخلق بالضرورة التبعية التكنولوجية في مجال الإعلام لصالح المحتكر، أي في كل ما يتعلق بالبنى الأساسية "المعدات والمرافق وتسهيلات الإنتاج والتوزيع التي يحتاج إليها النشاط الاتصالي في مختلف مراحله سواء جمع المعلومات أم إعدادها ونشرها وتوزيعها، إذ تتضمن مرحلة جمع البيانات وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية والأقمار الصناعية ووكالات الأنباء وشبكات التلكس وشبكات الكوابل ثم تأتي بعدها مرحلة إعداد المعلومات التي تتطلب توفير بنوك معلومات وآلات تصوير وغيرها"(١٠)، وبالتالي – وعن طريق هذه التبعية- يستطيع فرض هيمنته الفكرية والسياسية لحسابه أو لحساب الغير (الحرب بالوكالة) ما دامت هناك أرباح ستتحقق، ومطالعة القضايا الدولية – أيضا- في هذا الشأن تدلل على ذلك في السنوات الأخيرة.

ولعل ما يدلل على التحكم في تشكيل الوعي العالمي، ما تم الكشف عنه في الأعوام الأخيرة من قضايا بعضها ما يزال منظورا أمام القضاء، تتعلق بتوظيف شركات كبرى للفيس بوك في التأثير على توجيه وعي الناخبين في دول عديدة منها أمريكا وبعض الدول الإفريقية، وكذلك ما تم الكشف عنه بشأن خفايا مواقع السوشيال ميديا (التويتر والفيس بوك واللينكد إن والإنستجرام ...إلخ) واشتغالها على إعادة صياغة وعي المستخدمين والتحكم فيه عن بعد عن طريق الدمج بين علوم الذكاء الاصطناعي وعلوم النفس، وهو ما رصدته بعض الأفلام الوثائقية في الأعوام الأخيرة، منها: great hack & the social dilemma، كما يمكن التدليل على ذلك عربيا بما حدث من استثمار السوشيال ميديا لشحن الرأي العام ودفعه لاتخاذ موقف على أرض الواقع (الثورات العربية منذ عام ٢٠١٠م)

وفي الإجمال، يمكن –على المستوى العربي- رصد اتجاه ينحو منحى الإعلام الجديد، ويحكمه في ذلك منطلقان:

أولهما، الرغبة في استثمار وسائط الإعلام الجديد (السوشيال ميديا وغيرها) لصالح تمرير الوعي، وبخاصة بعد تراجع دور المؤسسات لصالح دور الأفراد، أي تراجع دور المؤسسات الكبرى المعنية

بشؤون الثقافة والتثقيف، وبزوغ دور المبادرات الفردية، التي يمكن مراجعة العشرات منها على شبكات الإنترنت.

والمنطلق الثاني، يأتي في سياق ما يمكن تسميته بخديعة السوشيال ميديا ومتابعة القضايا اليومية الاستهلاكية، التي لا يعلم المروج لها ما مصدرها وما مصداقيتها، لكنها في نهاية الأمر يتم طرحها بوصفها قضية تستحق النقاش.

ولعله من العجيب أن يقع كثير من المثقفين أصحاب الرأي في هذه الخديعة، وتتحول كتاباتهم ونضالاتهم إلى وسيط السوشيال ميديا (الفيس بوك والتويتر... إلخ)، لا لإنتاج الجديد أو الإعلان عن صناعته للمحتوى العربي باستثمار هذه التكنولوجيا، وإنما بمنطلق الاستهلاك اليومي، الذي ينتهي في غضون يومين على أقصى تقدير، لكنه في الوقت ذاته يؤثر – لحظيا- في الآلاف من المتابعين (وهو الأمر الذي كان مستحيلا في القرون السابقة).

ولعل المثال الأوضح الذي يمكن التدليل به على هذا الاتجاه، هو ظهور المهن الجديدة مثل "اليوتيوبر" و "المدون أو البلوجر"، وهو الأمر الذي غدا يتطور سريعا، ويؤثر في الملايين من المتابعين، ويخلق جماهيريته الخاصة، وذلك جميعه في غيبة من الدراسات العلمية الراصدة لمثل هذه التحركات وتأثيراتها، وربما يعود ذلك لأسر الماضي الذي لم يدرج بعد مثل هذه المستحدثات ليجعلها محكات تكتسب الشرعية لدراستها والاعتراف بها أكاديميا وثقافيا.

غير أن غياب دراسة هذه الوسائل ومهنها الجديدة، لا ينفي أنها موجودة ولها تأثير كبير في الرأي العام، بل يتجاوز تأثيرها كل مصادر الثقافة المتداولة والمتعارف عليها، والمعترف بها رسميا من قبل السلطة المهيمنة (سلطة الماضي، وسلطة المؤسسة، وسلطة العقل الذي يحتكم إلى ما يعرف، ويرفض ما يجهل).

تعقيب:

يجب الانتباه إلى أن إمكانية الانتقال والتقاطع بين بعض اتجاهات الوعي السابقة يمكن أن تحدث، وبخاصة فيما بين الاتجاه التراثي الماضوي، والاتجاه الإسلامي بتياراته الجماعية والفردية، وفيما بين الوعي الحداثي الغربي والوعي الحداثي العربي والوعي بالمستقبل، أما الاتجاه الأخير (الاستهلاكي والإعلام الجديد) فإنه يتقاطع عبر كل الاتجاهات السابقة ببعديه (استثمار انتشاره وسهولة تداوله لتحقيق أهداف ثقافية، أو الوقوع في خديعة الاستهلاكي واليومي والمكرر).

ومن هنا ينبغي التأكيد على أن محاولة فصل اتجاهات الوعي العربي الراهن، هي محاولة تعسفية في الأساس، بمعنى أنها افتراضية لتحديد الملامح العامة، وليست قطعية تفصل بين الاتجاهات بحدود صارمة.. فالوعي الإنساني عموما هو محصلة تقاطعات متعددة، يعود بعضها للتكوين النفسي، وبعضها للمستوى التعليمي، وبعضها للثقافة ودرجاتها، وبعضها لطبيعة المجتمع والبيئة المحيطة (الانغلاق/ الانفتاح)، وبعضها للقدرات العقلية والوعي بالاشتغال عليها وتنميتها على نحو مستمر.

ولعل المحك الأساسي في ذلك جميعه هو القدرة على مساءلة النفس، وتحليل أبعادها، ومراجعة موروثاتها بتجرد من الهوى (العقل العاطفي)، وامتلاك مهارات التفكير العليا لتتحقق لذلك جميعه المرونة الفكرية التي تسمح بإمكانية التفكير في عمليات التفكير، وتجاوز حالة الصلابة الفكرية التي تحيل دون تغيير ما نشأ عليه الإنسان بوصفه المنطقة الآمنة التي قد لا يجرؤ الكثيرون على خلخلتها ولو لمرة واحدة في حياتهم.

الهوامش والمراجع:

1. يمكن العودة في ذلك إلى: جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خباز، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧م.
2. يمكن العودة في ذلك إلى: رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م، ص١٢٠، وما بعدها.
3. سوزان بلاكمور: الوعي، مقدمة قصيرة جدا، ترجمة مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٦م، ص١٠.
4. يمكن العودة في ذلك إلى: محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م.
5. يمكن العودة إلى: أحمد شمس الدين: الفارابي حياته، آثاره، فلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
6. يمكن العودة إلى: آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، سورية، ٢٠٠٧م.
7. عبد الرازق الدليمي: الإعلام والعولمة، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ٢٠٠٤م، ص١٠٢.
8. للمزيد، يمكن العودة إلى:
- علي حجازي إبراهيم: التكامل بين الإعلام التقليدي والجديد، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٧م.
- ليا ليفرو: وسائل الإعلام الجديدة البديلة والناشطة، ترجمة هبة ربيع، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م.
9. https://al-ain.com/article/what-is-truth-of-american-conflict-huawei.
10. عبد الرازق الدليمي: إشكاليات الإعلام والاتصال في العالم الثالث، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ٢٠٠٤م، ص٤٥.